تعددية النص وأحادية المنهج

أ/ رابح ملوك

جامعة تيزي وزو

في مفهوم المنهج:

يشير الدكتور صلاح فضل إلى أن جميع التعريفات التي تحاول الإلمام بالمنهج مقصرة في الإحاطة بكل جوانبه، وقد ارتبط التعريف الإصطلاحي للمنهج بأحد تيارين اثنين: المنطق والتيار العلمي في عصر النهضة.[1]

أما المنطق فيدل على الوسائل والإجراءات العقلية المقيدة بالحدود المنطقية المؤدية إلى نتائج محددة [2]، وأما التيار العلمي فهو يحتكم ،إضافة إلى العقل، إلى الواقع ومعطياته وقوانينه. أما في العصر الحديث فقد تعددت الشروط والمواصفات المحددة لطبيعة المنهج العلمي.[3]

ويقف صلاح فضل عند المنهج النقدي تحديدا ليبين أن له مفهومين : خاصا وعاما. يرتبط المفهوم العام بطبيعة الفكر النقدي في العلوم الإنسانية، وهو فكر من أهم سماته أنه لا يقبل أي مسلمات قبل عرضها على العقل، واختبارها والتدليل عليها بوسائل تؤدي إلى التأكد من سلامتها وصحتها. في حين يرتبط المفهوم الخاص للمنهج بالدراسة الأدبية وبالطرق التي تعالج بها

1- انظر صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2002، ص9.

2- انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- انظر المرجع نفسه، ص ص 9، 10.

القضايا الأدبية وتحلل على أساسها أشكال الإبداع .[1] وهو في هذا لا بد أن يحتكم إلى منظومة خاصة تتألف من مستويات مختلفة من أهمها مستوى النظرية الأدبية[2]، ونظريات الأدب، كما يشير بشبندر، هي نظريات عن كيفية قراءة النصوص الأدبية، وهي تقدم افتراضات عن هذه النصوص، وادعاءات بشأن قيمة تلك النصوص، أو الطريقة التي يجب أن تقرأ بها.[3]

المنهج في مواجهة النص المتعدد:

إن المنهج، باستناده إلى نظرية معينة، يقع في حتمية النظرة الأحادية ضمانا لانسجامه مع متطلبات النظرية التي يستند إليها، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يضيء سوى زاوية واحدة من زوايا النص الأدبي ،وهي زوايا تتعدد بتعدد المناهج، وتركيزها على عنصر معين يتعلق بالنص الأدبي دون العناصر الأخرى، يوضح ذلك في المخطط الذي وضعه سلدن[4]، مستثمرا مخطط جاكبسون في عناصر الفعل الاتصالي التي تتحدد في[5]:

السياق

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه

قناة الاتصال

الشفرة

1- انظر المرجع نفسه، ص10.

2- انظر المرجع نفسه، ص ص 10،11.

3- انظر ديفيد بشبندر: نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996، ص14.

4- انظر رامان سلدن : النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، ط1 ،دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان 1996، ص11.

5- انظر رومان ياكبسون : قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، ط1،دار توبقال للنشر، الدار البيضاء1988، ص27.

فالنظريات الأدبية تختلف في توجهها نحو واحد من هذه العناصر وإيلائه الأهمية القصوى :

الماركسية

الرومانسية ←——— الشكلانية ———→ المتجهة إلى القارئ

البنيوية

هذا يعني أن المناهج النقدية تختار بابا معينا للولوج إلى داخل النص، وداخل النص طبقات لا يستطيع منهج واحد أن يضيئها لأنه ينظر بعين واحدة في اتجاه واحد .

هذا الطرح هو الذي سنعمل على اختباره في تحليلنا لأبيات شعرية من معلقة امرئ القيس في وصف فرسه.

الأبيات:[1]

1- وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكـــل

2- مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمودصخرحطه السيل من عل

3- كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنـــزل

4- مسح إذا ماالسابحات علىالونى أثرن غبارا بالكديد المركـــل

5-على العقب جياش كأن اهتزامه ،إذا جاش فيه حميه،غليُ مرجل

6-يُطير الغلامَ الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقـــل

7-درير كخذروف الوليد أمـره تقلب كفـيه بخيط موصـــــل

8- له أيطلا ظبي وساقا نعامـة وإرخاء سرحان وتقريب تتفـــل

1- الأعلم الشنتمري: شرح ديوان امرئ القيس، تصحيح الشيخ ابن أبي شنب، الشـركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص82-86.

ماهي الدلالات التي تحملها الأبيات أعلاه؟، هل ننظر إليها على أنها محاكاة ؟هذا يعني أننا نعتمد على نظريات المحاكاة التي تؤكد على علاقة النص بالواقع البيوغرافي والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي خارج النص[1]. أم ننظر إليها(الأبيات) على أنها بنية مغلقة على ذاتها غير منفتحة على الخارج ؟ إننا في هذه الحالة نكون معتمدين على البنيوية وأخواتها. وأيا كان اختيارنا للمناهج التي نعالج بها النص الأدبي فإن معالجتنا ستظل قاصرة عن "مسح" العالم الدلالي للنص مسحا كاملا.

ولكن هذا لا يعني إزدراء بقيمة المنهج، لأن المنهج << يشكل...في ظل أي قراءة نقدية حديثة، خطوة بالغة الأهمية والقيمة، فهو الذي يضبط خطى القراءة ويحدد مسارها، والمنهج هو الذي يتوقف على استقامته، أو انحرافه، استقامة النتائج التي تفضي إليه القراءة، أو انحرافها.>>[2] بيد أننا، وإن كنا نرى أن << القراءة النقدية ما لم تستند إلى منهج تفقد فاعليتها وتظل غير ذات نفع وشأن >>[3] فإننا نرى أن فاعلية أي مقاربة نقدية تظل ناقصة أمام النص الأدبي الذي يأبى تسليم نفسه لمنهج بعينه.

إن الأبيات الشعرية أعلاه تقدم لنا في مستواها السطحي صورة لفرس امرئ القيس، فهي بذلك تبدو وكأنها ذات دلالة تسير في اتجاه أحادي محدد، ولكننا ننبه إلى أن هذه الأبيات تظل قابلة لقراءات لا تنتهي، فالشعر، كما يرى

1- انظر ديفيد بشبندر: نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ص17.

2- قاسم المومني : في قراءة النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيـــروت 1999،ص96.

3- المرجع نفسه، ص97.

ريفاتير، يقول شيئا ويعني شيئا آخر، أي أنه يعبر عن المفاهيم والأشياء بشكل غير مباشر.[1]

إن قراءة في الأبيات|النص لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار كل ما من شأنه أن يضيء دواخل النص ومنعرجاته ومن ثم فإننا مدعوون إلى ربط العلاقات بين المستويات المختلفة المشكلة للنص لأن تلك العلاقات هي التي تصنع الدلالات التي تظل دلالات لانهائية.

ملاحظات على وصف الفرس:

امتدادا لما قلناه سابقا سنحاول مقاربة الأبيات| النص من خلال تتبع مسارات وصف الفرس:

- ثمة ثنائية دلالية يلح عليها النص هي ثنائية (السرعة، القوة)، وهي متضمنة في البيت الأول من خلال كلمتي "منجرد" و" هيكل" فإذا كانت الثانية تشير إلى الضخامة فإن الأولى تطلق على الفرس << الماضي المنسلخ من الخيل عند السباق>>[2] هذه الثنائيةهي بؤرة الدلالة في منظورنا، فالصور المتنوعة التي يقدمها النص للفرس تلتقي كلها عند هذه الثنائية:

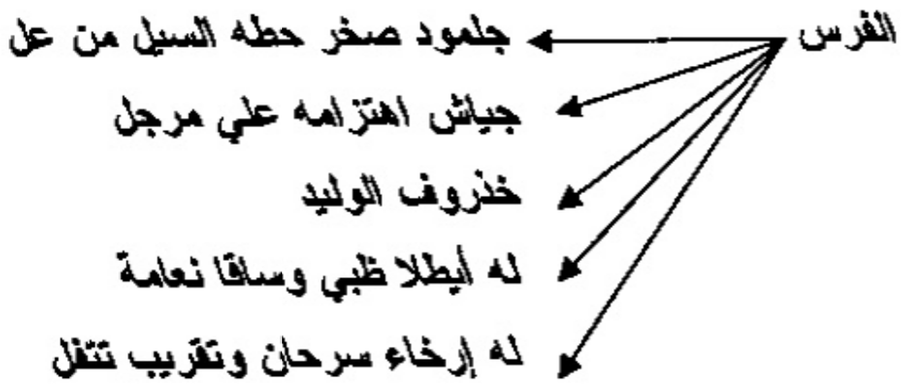

1- انظر مايكل ريفاتير: سيميوطيقا الشعر: دلالة القصيدة، ترجمة فريال جبوري غزول، في " مدخل إلى السيميوطيقا"، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة1986، ص213.

2 – الأعلم الشنتمري: شرح ديوان امرئ القيس،ص 83.

- يقدم الفرس في حال الحركة، وهي حركة سريعة عنيفة، فممتطي الفرس لا يمكنه أن يثبت على متنه، فمآله سقوطه أو سقوط ثيابه، فالفرس << يذهب بها ويسقطها من شدة العدو>>[1]، ويحدث لراكبه ما يحدث للطائر<< الذي يتنزل على الصخرة فيحطه السيل>>[2]. وهذا الإلحاح على الحركة هو ما يترجمه ارتباط الأفعال المضارعة بالفرس (يزل، يطير، يلوي)، وحين يغيب الفعل المضارع تحضر صيغة المبالغة لترسم حركة متنامية للفرس(جياش).

- وتظهر الحركة السريعة باصطناع حيلة نحوية تتمثل في حذف حرف العطف في البيت الثاني أعلاه، مما نتج عنه إلغاء التعاقب الزمني لفعلي الكر والفر، أي أن الفاصل الزمني بين حدثي الكر والفر صار منعدما، فبدلا من أن يكون زمن الحدثين على الشكل:

مكر مفر

←——— ←———

زمن أول زمن ثان

فإنه يرد على شكل آخر:

مكر

(زمن واحد)←———

مفر

وتأتي كلمة " معا " في نهاية صدر البيت الشعري لتؤكد إلغاء هذا التعاقب الزمني سواء اعتبرناها حالا أم ظرفا، فهي تفيد اشتراك شيئين في زمن واحد[3]، وهذان الحدثان فيهما قوة وصلابة بسبب ضخامة الفرس، ثم بسبب

1- الأعلم الشنتمري: شرح ديوان امرئ القيس، ص85.

2- نفسه، ص 84، الهامش1.

3- انظر نايف معروف: المعجم الوسيط في الإعراب، ط1، دار النفائس، بيروت 1988، ص292.

التشبيه في الشطر الثاني، فقد جعل الشاعر<< الجلمود منحطا من فوق الجبل لأن ذلك أصلب له وأسرع لوقعه، وكأنه شبه سرعة الفرس وصلابته به>>[1].

ولكن هل يمكن التوقف عند هذا الحد في التحليل، أليس من حقنا أن نتساءل : ماذا وراء وصف الفرس؟ ولماذا التركيز على صفات بعينها ؟ يمكننا أن نرى مع أحد الباحثين أن امرأ القيس لا يصف فرسا هنا، بل هو يبدع أسطورته، ويتمرد على واقعه الإنساني التافه[2]. وقد نرى في وصف الفرس وإثبات التفوق له، إلحاحا على إثبات الفروسية لصاحبه (الشاعر) لأن الفروسية قيمة لها حظها من التقدير في المجتمعات العربية، ومن ثم كان الشاعر << مسكونا بهاجس القوة نيطم علم اليقين أنها وحدها القادرة على إثبات "الذات" وترسيخ الإيمان بها>>.[3]

إن القراءة التي قدمنا تتجه إلى داخل النص وإلى خارجه، وهي تنتمي في منطلقاتها إلى أكثر من منهج نقدي، ورغم هذا التعدد في المنطلقات فإننا لا نستطيع ادعاء سبر أغوار النص ولا استنفاد احتمالات الدلالة فيه، كما أن النص يظل منفتحا على النصوص الأخرى انفتاحا يستعصي على التحديد الدقيق، وكل ذلك يجعل ادعاء إحاطة منهج ما به إحاطة تامة ضربا من الخيال، ومراما مستحيل التحقيق.

1- الأعلم الشنتمري: شرح ديوان امرئ القيس، ص ص 83 84.

2- انظر وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1996، ص236.

3- المرجع نفسه، ص 235.